

## صورة "الربيع العربي" في الإبداع الروائي المغربي.

عبد الرحمان إكيدر

جامعة القاضي عياض مراكش - المغرب.

### • تقديم :

شكلت أحداث "الربيع العربي" عنوانا لمرحلة تاريخية عدت منعطفًا حاسمًا شهدته المنطقة العربية من مغربها إلى مشرقها منذ نهاية العقد الأول من الألفية الثالثة. وقد شكلت هذه الأحداث مادة دسمة تستمد منها بعض الروايات المغربية واقعيها المتخيلة وقوتها وتوهجها، وهي أحداث مفعمة بالمشاعر والآلام. فقد كان لهذا الواقع الأسود الأثر البارز في إسالة المداد وتفجير الكلمات المصورة لتلك الأحداث والمآسي التي تسير أغوار الشخصية المغربية وتوثق أحداثًا دامية، وذلك في قالب فني إبداعي يزاوج بين الواقعي والمتخيل.

### • الرواية وثورة الربيع العربي :

يشير الروائي الطاهر بنجلون إلى أن "هذا الربيع العربي القادم في عز الشتاء لا مثيل له في التاريخ الحديث للعالم، إلا إلى حد ما ثورة القرنفل في البرتغال (أبريل / نيسان 1974). حتى لحظة اندلاع هذه الحركات، كانت الشعوب العربية معتادة على أن تقبل بمصيرها وتخضع له مستسلمة. شهدت المنطقة، من حين لآخر، بعض حركات التمرد، والتي قمعت في كل مرة بقسوة، وقضي على كل المعارضين. يشترك المغرب والمشرق في هذا الأمر"<sup>86</sup>. وقد عمل مجموعة من الروائيين على توثيق هذه اللحظات، فأغلب الروائيين في المغرب العربي خاضوا الحدث وواكبوه بأعمال إبداعية. ذلك أن الرواية ومقارنته بباقي الأجناس الأدبية لها قدرتها على سرد مختلف الأحداث الحياتية الاجتماعية وسياسية وغيرها، نظرا لما تمتلكه من قدرة

<sup>86</sup> الطاهرين جلون، الشرارة انتفاضات في البلدان العربية، ترجمة: حسين عمر، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط 1، 2012، ص 29.

على تصوير حياة المجتمعات، ولما لها من قدرة على رصد ما شهده ربيع العالم العربي. وعلى هذا الأساس سنحاول في هذا الصدد إبراز صورة الربيع العربي في بعض المتون الروائية المغاربية المتميزة، وسيكون متن الاشتغال على الروايات الآتية :

- ورقات من دفتر الخوف (أبو بكر العيادي).
  - فرسان الأحلام القتيلة (إبراهيم الكوني).
  - عدو الشمس الهلوان الذي صار وحشا (محمد سعيد الريحاني).
- وذلك بالتركيز على رصد عدد من التيمات المشتركة والأكثر ترددا في هذه النماذج، والتي تصور واقع المجتمعات المغاربية خصوصا في تونس وليبيا إبان حراك الربيع العربي.

### 1- صورة الربيع العربي في رواية "ورقات من دفتر الخوف" :

تدور أحداث الرواية حول واقع المجتمع التونسي خلال فترة حكم الرئيس السابق بن علي، وتسلب الضوء على الفساد المتفشى في البلاد وما ترتب عن ذلك من معاناة وتضييق على الحريات، ثم ترصد مجريات ثورة الياسمين منذ أول يوم، وكل هذه الوقائع يسردها أبو بكر العيادي الذي يتابع الأحداث ويتفاعل معها من المهجر. راصدا في ثنايا الرواية مجموعة من التيمات والمتمثلة في : الخوف، واستبداد السلطة، ومطلب الحرية والكرامة. ووضعية المثقف العربي، وواقع الإعلام.

#### - تيمة الخوف:

لمدة عقود أطبقت السلطات الحاكمة سياسة التخويف، متسلحة بشتى الأساليب والأدوات لزرع الخوف في النفوس والاستبداد بالعباد. وتصور روايات الربيع العربي هذه التيمة بمختلف تمظهراتها مبرزة تفشي حالات الخوف بين المواطنين، وهذا ما تكشفه رواية "ورقات من دفتر الخوف" لأبي بكر العيادي، فقد استهل الكاتب هذا العمل بالإهداء الآتي :

(إلى كل من لم يبع ضميره زمن الخوف)<sup>87</sup>. ثم بمقتبسات عبارة عن أبيات شعرية :

وكنت أخاف الدهر ما كان باقيا فلما تولى مات خوفا من الدهر

<sup>87</sup> أبو بكر العيادي، ورقات من دفتر الخوف، مومنت كتب، لندن، ط 1، 2013، ص 3.

(أعرابية)

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ولا سراة إذا جهالهم سادوا  
تُهدى الأمور بأهل الرأي ما صلت فإن تولت فبالأشرار تنقاد<sup>88</sup>  
(الأفوه الأودي)

وقد عرض المؤلف مجموعة من الأمثلة الدالة عما كان الشعب يعانيه من قمع وتنكيل ونفي واستيلاء على الممتلكات، وعما كانت البطانة والحاشية تمارسانه من ابتزاز واضطهاد. فكلمة (خوف) تتردد بقوة في فصول هذه الرواية، التي تنقل أيضا خوف كاتبها وهو في المنفى يتابع التطورات المتلاحقة والمتسارعة التي تشهدها ساحات الاحتجاج "من منفاي الباريسي، وبخوف من أن تدور الدوائر على المتظاهرين في الشارع الرئيسي، فالطاغية سفاح لا يعرف الرحمة، سيرته معمدة بالقتل، ملطخة بدماء ضحاياه من أبناء الشعب الأعزل"<sup>89</sup>. وقد يبدو هذا الخوف هاجسا يسكن كل فرد حتى صار لا يأنس لمحدثه ولو كان من المقربين، يقول السارد: "بذلك حكمنا بن علي وأركب علينا طغمته وعائلته الفاسدة، وما هم في الأصل سوى أصنام من رمل اندثرت لأول موجة"<sup>90</sup>. لكن مع بداية الحراك، ونزول الناس إلى الميادين سرعان ما انقلبت الآية وتحول الخوف إلى السلطة الحاكمة في شخص بن علي وزبانيته، يقول أبو بكر العيادي: "وعجبت للناس يتحدونه، أمام معقل جهازه الأمني الذي أقام عليه مجده وكرس بقاءه، وهم يعرفون من بطشه ما لم يعد خافيا على أحد. وعجبت أكثر لشبان يطاولونه (...) خيل إليّ ساعها أن الخوف انتقل من المستضعف إلى الأمر النهائي"<sup>91</sup>. لقد حمل شباب تونس لواء التغيير وكسر جدار الخوف الذي عمّر لسنوات، فرفع صوته عاليا منددا بكل تلك الممارسات التخويفية.

- استبداد السلطة :

لم تكتف الروايات التي تلت سنة 2011 بسرد الأحداث الحافلة بالثورة أو تلك التي

88 نفسه ٥.

89 نفسه، 7.

90 نفسه، ٩٢.

91 ورفقات من دفتر الخوف، ص 8.



## - مطلب الحرية والكرامة :

شكل موضوع الحرية والمطالبة بالكرامة الإنسانية ميسما ميز الرواية العربية منذ بداياتها الأولى، ولعب رواد الرواية العربية دورا في بناء مؤسسة الإبداع الروائي الملتزم بالقضايا الإنسانية الجوهرية. فقد "تناولت الرواية العربية مسألة الحرية في مواجهتها للاستبداد في فترتي : النظام الاستعماري، والحكم الوطني، بمختلف تلويناتهما الإيديولوجية، بحيث يمكن القول إنه لا تكاد تخلو رواية عربية من عرض أنواع الاضطهاد والتعذيب التي مورست على الإنسان العربي، وأصناف الصمود التي تحدى بها ذلك الاضطهاد، من أجل تحقيق حريته وصموده"<sup>96</sup>، وقد برزت هذه التيمة في روايات الربيع العربي من مغربه إلى مشرقه، خصوصا رواية (ورقات من دفتر الخوف) التي تربط الحرية بالعدالة والكرامة الإنسانية، وبالتالي كان ثمن هذا المطلب هو الجهر بصوت عالٍ لتكسير القيود، سيما وأن النشيد الوطني التونسي الذي أبدع أبياته الشاعر أبو القاسم الشابي ينثي بدور الشعب في تحقيق مطالبه، ولعل أهم هذه المطالب هي الحرية :

إذا الشعب يوما أراد الحياة فلا بد أن يستجيب القدر  
ولا بد لليل أن ينجلي ولا بد للقيد أن ينكسر

لقد "كان نظام بن علي يُقارن باحتلال استعماري، أي لا شرعي ومتوحش. لقد أمضى عشرين عاما في إرساء الشبكات والتنظيمات الضرورية لإخضاع البلد لإرادته. تحت ذريعة حماية البلاد من الخطر الإسلامي، أجاز لنفسه كل شيء، وهذا تحت بصر ورضا الدول الأوروبية"<sup>97</sup>. لكن إرادة الشعب تأتي إلا أن تكون حاضرة في الميادين والشوارع الرئيسية للبلاد منددة بأعلى صوتها وبطرق سلمية وحضارية عن حريتها وكرامتها، وذلك من خلال شعارات رفعت في وجه نظام فاسد. يقول أبو بكر العيادي : "وجدت رسائل كثيرة وشرائط بالجملة. فتحت أحدها فإذا مسيرة ضخمة فاضت عن شارع بورقيبة، والناس رجالا ونساء، شبانا وبنات، يرفعون علم تونس ولافتات كتب عليها :

<sup>96</sup> أحمد البيوري، في الرواية العربية التكوين والاشغال، شركة النشر والتوزيع المدارس، الدار البيضاء، ط 1، 2000، ص 128.

<sup>97</sup> الطاهر بنجلون، الشرارة انتفاضات في البلدان العربية، ص 37.

## RCD DEGAGE

ويهتفون :

تونس تونس حرة حرة والتجمع على برة"98.

ويقول في مقطع سردي آخر: "لاح الأصدقاء الافتراضيون على الفايسبوك وقد استعاض  
أغليهم عن صورته بعلم تونس أو بشعارات مثل:

ثورة الحرية والكرامة

BEN ALI DEGAGE

ثورة 14 جانفي

الشهيد محمد البوعزيزي"99.

وقد جوبهت هذه الشعارات بالعنف والدماء، "قناصة يعتلون سطوح المباني ويطلقون  
نيرانهم على شباب يطالب بالحرية، ليس له من سلاح سوى غضب فاضت به الصدور"100.  
وقد تحقق هذا المطلب بعد فرار الحاكم وبطانته الفاسدة، وسقوط رموز الفساد تباعا،  
وتبرز الرواية هذا الحدث بصوت أحد المناضلين الذي يبشر بانجلاء الكابوس الذي جثم  
على البلاد أعواما :

تحيا تونس الحرة

المجد للشهداء

المجد للشعب التونسي

الحرية للتوانسة101.

- المثقف العربي :

إن المبدع العربي من حيث هو إنسان ومواطن معني بالأحداث التي تشهدها بلاده،  
فيعبر عن ذلك بصيغ إبداعية مختلفة وفي قوالب فنية تمزج بين الواقعي والتخييلي. وقد

98. ورقات من دفتر الخوف، ص 39.

99. نفسه، ص 19.

100. من دفتر الخوف، ص 9.

101. نفسه، ص 7.

كان لحدث الربيع العربي في المنطقة المغاربية فرصة سانحة للروائيين، وذلك للتعبير عن مواقفهم الشخصية والفكرية إزاء هذا الحدث العظيم، والتي كانت تجسد الواقع المعتم للمجتمع في ظل نظام استبدادي دفع ثمنه كذلك المثقف العربي.

لقد صورت مجمل هذه الروايات واقع المثقف العربي بشكل مضمريستشف من خلال بعض المقاطع وأحيانا أخرى بشكل صريح. وخير مثال عن ذلك رواية (ورقات من دفاتر الخوف)، والتي هي عبارة عن سيرة مثقف يتابع من منفاه ما يجري في وطنه أثناء الليل وأطراف النهار، عبر وسائل التواصل الاجتماعي والقنوات الأجنبية، غريبة كانت أم عربية. فقد حاول أبو بكر العيادي أن يقدم لنا واقع تونس قبل الثورة وإبانها، حيث تردت ذاكرة بطل الرواية إلى وقائع كان طرفا فيها، قبل أن يضطر إلى الهجرة، برغبته في المرة الأولى، ومكرها في المرة الثانية. ويشير إلى ذلك في أحد المقاطع: "كان ذلك قبل أن يضطرنى النظام إلى العيش في المنفى، مجتثا من تربتي، محروما من رائحة بلادي. لذت بعزلتي أدون في الورق ما يساورني كل ليل"<sup>102</sup>. لقد كشف الكاتب عن ما يتعرض له المثقف من مضايقات ومصادرة المؤلفات ومنع ترويجها بدعوى أنها تدين الاستبداد وتعري الحكم الفردي المطلق، ذلك أن هذه الأصوات تؤمن بالكلمة الصادقة، لا تبتغي مناصب وأوسمة زائفة.

#### - الواقع الإعلامي :

تعتبر حرية الإعلام من أهم مؤشرات الديمقراطية في أي دولة، غير أن الواقع الإعلامي في العالم العربي لمدة عقود يكشف عن أن جل الصحف والقنوات التلفزيونية غالبا ما تسخر لخدمة مشروع الأنظمة التي جعلتها أبواقا تمرر من خلالها أفكارها التضليلية التي لا تصور الواقع إلا كما أراده الحكام. و"لأننا في زمن الإعلام المفتوح فإن هذه الأنظمة فشلت في إعادة إنتاج نفسها وبالغت في الهاجس الأمني على سلامتها الشخصية، واستمرت في أسلوبها القديم القائم على أجهزة المخابرات ولم تشعر بأن الزمن قد تغير، ولهذا فقد فوجئت، بل صعبت، بما حدث، وكانت النتيجة ما رأيناه ونراه يوميا على الفضائيات الإخبارية"<sup>103</sup>.

<sup>102</sup> ورقات من دفتر الخوف، ص 48.

<sup>103</sup> سيف المري، أجراس الحروف، ص 188.

ولم تغفل الروايات المغاربية دور الإعلام في ثورة الربيع العربي سواء الإعلام المفبرك للأنظمة الاستبدادية أو الإعلام العالمي الحر والذي غالبا ما يصور الواقع والأحداث كما هي. يقول السارد في رواية (ورقات من دفتر الخوف) : "فتحت قناة الجزيرة، فإذا الخبر يتصدر نشراتها على مدار الساعة ... في حين كانت قناة تونس 7، وليس لنا ست قبلها لتحوز تلك المرتبة، ماضية في جدل عقيم ومنوعات تافهة. ثم صارت متابعة الجزيرة شغلي الشاغل منذ رجوعي من العمل حتى ساعة متأخرة من الليل"<sup>104</sup>. والأمر نفسه ينطبق على الجرائد التي أضحت صوتا للنظام، فلا يسمح لها بالنشر إلا بعد موافقة الأجهزة الرقابية التي تسهر على تطبيق سياسة النظام وتلميع صورته، والويل لمن يخرج عن هذه الإدارة، لقد "صارت الصحف أبواق دعاية، وافتتاحياتها مباراة في موضوع إنشاء يحدد عشية صدورها، بل إن صور سيادته هي الأخرى كانت مرقمة، لا ينشر منها في الصفحة الأولى إلا ما يسمح لنا بنشره في اليوم المضبوط. كانت المكالمات تنزل على رؤساء التحرير في شكل أوامر تأتي مباشرة من القصر، تلزمهم بالمواضيع الواجب التباري فيها على هدي سياسة الرئيس الرشيدة، وسياسة الحكام العرب رشيدة وجوبا ... وويل لمن عصى، أو فاه بكلام لا ينسجم مع الخط العام الذي رُسم للإعلام في تونس"<sup>105</sup>.

ولم يسلم السارد نفسه من هذا الواقع ومن التهميش بعدما وجد نفسه في الشارع مستبعدا بعد رفضه الانصياع والانبطاح لتوجهات الجريدة التي كان يعمل فيها، "سمعت بوكالة الاتصال الخارجي طبعاً ... هذه التي جعلت لتلميع صورة تونس في الخارج. لقد صارت بقدرة ذلك الذي يسميه الصحفيون (عبعب)، أخبث مستشاري القصر والأمهم، تستعمل سلاحاً لإخماد الصحف التي ترفض الانبطاح، حيث تهب الإشهار لمن تشاء وتمنعه عمّن تكره. والويل للمؤسسات التي تتجاوزته فتتعامل مباشرة مع جريدة مغضوب عليها. ولك أن تتخيل البقية. وقع تهميش الجريدة، وإبراز جرائد أخرى صارت تحتل الواجهة، بعد أن رحب أصحابها وكتبها بتحبير ما يريده النظام، والتجني على من لا يروقه، فوجدت نفسي في

104... 14... 10... 9

105... 47



أن بداية الشرارة جعلت الشعب يؤمن بالبعث وإمكانية التغيير والانعقاد من هذا السجن وذلك بعدما تبين أن الانتفاضة أعطت أكلها في كل من تونس ومصر. "ويبدو أن الأحداث التي سبقت الزلزلة قد لعبت دورا في بعثنا، أو اكتشافنا المفاجئ لأنفسنا على النحو الذي شهده ميدان المحكمة بالمدينة في ذلك اليوم. لقد تابعنا زلزلة جارة الغرب بلا مبالاة تليق بجيل اللامبالاة. أو ما ظنناه لا مبالاة، ثم تابعنا بذهول انهيار هرم الدهر في جارة الشرق"109.

وقد عالجت الرواية أيضا جانبا من المضايقات التي يفرضها النظام الاستبدادي لتكبير المثقف وكبح جماح إبداعه، ومحاسبته، فقد قادت كلمة صرح بها منتقدا واقع التعليم إلى دروب من المسألة "زيارة مقر تلك الإدارة كانت رحلة طفت بها أركان كل الأجهزة الأمنية التي يمكن أن تتفتق عنها عبقرية بشر: الأمن الداخلي، الأمن الخارجي، الاستخبارات العسكرية، ثم .. اللجان سيئة السمعة"110.

ركزت رواية الكوني على فضح أدلجة المناهج التعليمية التي اعتمدها النظام الديكتاتوري في ليبيا، حيث عدت هذه المناهج متجاوزة ورجعية ومتخلفة تربي الناشئة على الخضوع التام منذ نعومة الأظافر، فقد شكلت وسائل لإعادة إنتاج القمع وتبليد الناشئة، وقد رسم إبراهيم الكوني صورة قاتمة لمضامين هذا المنهج الذي يكرس سلطة الحاكم وتازه وتقده، والغريب أن وضع المنهج وتنزيله مهمة يضطلع بها أناس لا يفقهون شيئا في هذا التخصص بعيدون كل البعد عنه، "ها هو الغلاف الواجبة مشفوع بعبارة (اللجنة الشعبية العامة للتعليم العام)، يليه العنوان الفرعي بخط النسخ: (التاريخ المعاصر). حسنا. فلنقلب الصفحة لنقف على حقيقة هذه الملححة السمجة. المؤلفون. أسماء معروفة حقا، ولكن .. في مجال أبعد ما يكون عن العلم والتعليم أو التأليف! إنهم ككبكة متداولة من فرسان الجيش. يا رب الأرباب، ما هذا؟

ضباط القوات المسلحة يتناولون في مناهج الجيل؟! "111.

109 .. 101

110 فرسان الأخلام القتيلة، ص 91.

111 نفسه، ص 27.

لقد غيّر الديكتاتور معمر القذافي المناهج التعليمية وفقاً لفلسفات هجينة لدراسة أفكاره وتوجهاته الثورية، وغالبا ما تضمنت هذه المقررات مغالطات تاريخية تعتمد تجهيل الشعب وطمس ماضيه المجيد وكل أبطاله ورموزه في مقابل تمجيد القائد الزعيم الذي تتغنى به كل الكتب المدرسية. "كدت أحتج فأقول إن المنهج الدراسي ليس قرآنا منزلا، ولكني تذكرت أن آراء سادة هذه الدنيا كثيرا ما كانت متونا أكثر حرمة من القرآن"112.

وقد شكلت لحظة سقوط النظام لدى شعوب المنطقة بداية الانفراج وتحقيق المبتغى المنشود، غير أن هذا السقوط تلتها مباشرة مجموعة من الظواهر الفوضوية من أعمال نهب وسلب للممتلكات العامة والخاصة وتخريب اجتاح البلاد وحرق للمؤسسات، أضف إلى ذلك التجاوزات الأخلاقية وكذا الانتقام دون محاكمة عادلة. وقد عبرت الأصوات الروائية المغاربية عن هذه الممارسات التي خلفت لدى المبدعين إحباطا وصدمة لكل الآمال والتطلعات، ولقد سبب هذا الوضع جرحا عميقا بعد ما آل إليه الوضع من انتكاسات وممارسات دامية، يقول إبراهيم الكوني في الفصول الأخيرة من روايته: "ولكن الجرح الذي فجعي أكثر من جراحي ومن جراح الأب هو ما آل إليه المآل بعد كل هذه القرابين. لقد رأيت بعد تحرير الأحلام أناسا يتجاهلون القيمة ويتقاتلون قتالا في سبيل الفوز بالغنيمة"113.

لقد صاغ إبراهيم الكوني أحداث هذه الرواية من خلال ضمير المتكلم الذي يحيل على شخصية (غافر) بوصفه راويا مشاركا في مجريات الأحداث، وذلك بلغة مفعمة بالرموز المشاعر الإنسانية. وقد لجأ الكاتب إلى توظيف أسلوب الاستفهام الذي تردد بقوة في المتن الروائي، إذ طرح الرواية مجموعة من التساؤلات تتخذ أحيانا أبعاد فلسفية تستدعي التأمل.

غير أن هذا العمل لقي بعضا من الانتقادات التي تصب في مجملها حول عدم ارتقاء هذا العمل لقامة إبراهيم الكوني بسبب التسرع وبرودة السرد. يشير (سلمان زين الدين) إلى "أن قراءة متأنية للنص تخلص إلى أنه يقفز فوق العامل الخارجي الذي لعب دوراً حاسماً في

112 .. ص ٤٨

113 فرسان الأحلام القتيبة، ص 227.

الصراع، ولا يتوقف عند الثمن الكبير الذي دفعته ليبيا للتححرر، ويفتقر إلى درامية الواقع، ويتناول الحدث المتسارع الساخن بسرد بطيء بارد، ويغلب الحيز الداخلي في الوقائع بما هو أفكار وانطباعات على الحيز الخارجي بما هو حركة في المكان، ما يجعل النص مثقلاً بالأفكار، وينتقص من روائيته.

يدس الكاتب في روايته، من خلال قناعه الراوي، شيئاً من الأيديولوجيا، وشيئاً من التنظير، فتحضر الأفكار على حساب الوقائع الخارجية أحياناً، ويجنح نحو الوعظ والخطابة أحياناً أخرى، كما في قوله: «أردت أن أقول إننا يجب أن نتعلم الاعتزاز بهويتنا الأثرى لا الأفقر! يجب أن نتعلم أن نفخر بتعددنا لأن التعدد ضمان وجودنا في البعدين، الأفقي والعمقي، كما يجب أن نتعلم الفخر بتنوعنا لأن في تنوع الثقافات واختلاف الديانات يكمن امتدادنا الروحي وعراقتنا الإلهية...»<sup>114</sup>.

### 3- صورة الطاغية في رواية "عدو الشمس الهلوان الذي صار وحشاً":

ترصد رواية (عدو الشمس الهلوان الذي صار وحشاً) لكتابتها المغربي (محمد سعيد الريحاني) صورة الطاغية معمر القذافي منذ بداية الثورة الليبية إلى يوم مقتله، وتكشف عن تناقضات هذا الحاكم المستبد الذي يعاني جنون العظمة والفصام. فقد فرض سلطته بقبضة حديدية لا تعترف بالمواثيق الدولية التي تدعو لاحترام حقوق الإنسان، كما لا تؤمن بمقولات الديمقراطية والنقد والمساءلة وحرية التعبير، وقد وفق الكاتب محمد سعيد الريحاني في رسم صورة هذا الدكتاتور الذي يصرح علانية: "إن السلطة والحكم ينتجان (الطاغية). وعليه، ارتأيت أن أقتسم معكم القوانين لضمان الفعالية: فلکم أنتم الشعب السلطة، ولي أنا القائد الحكم. كما أن حراسة الثورة والتصرف فيما تنتجان (الإسراف والتبذير). وعليه ارتأيت أن أقتسم معكم الدورين: فلکم، أنتم الشعب، حراسة الثورة النفطية وباقي الثروات الطبيعية، ولي، أنا القائد، صلاحية التصرف فيما"<sup>115</sup>. ويضيف في

114 ..... 12 : 2012

115 محمد سعيد الريحاني، عدو الشمس الهلوان الذي صار وحشاً، طوب بريس، ط 1، 2012، ص 12.

مقطع آخرين انفراد الطاغية بمقاليد الحكم وتسيير البلاد، فلا رأي إلا رأي المقدس الذي لا يقبل النقد والمحاسبة.

"لقد أوقفنا التاريخ ...

فلا أحزاب، بعد اليوم، ولا نقابات ولا جمعيات ...

لا نقد ولا محاسبة ولا مطالب ولا أسئلة ...

لا كتب مقدسة ...

لا شيء غيري وغير كتابي وخطبي ..."116.

وقد يصل الأمر بالطاغية إلى حد الفتك بكل أفراد شعبه شبابا وشيوخا ثوارا كانوا أم عزل، وحرقت البلاد وإسالة الدماء من أجل البقاء والاحتفاظ بكرسي الحكم، ومن يخرج عن إرادته فهو متآمر وإرهابي وجرذ حقير، "أنا لست رئيسا : أنا زعيم ثورة. أنا لا منصب لي، ولذلك، لا يمكنني التنحي. فأنا مقاتل ثائر وسأدافع عن ثورتي إلى آخر رجل من رجالي. أنا ليس لي سوى بندقيتي. سأقاتلكم وأقتلكم جميعا. سأحرق ليبيا على الموقف ولو في بحر من الدماء فأنا الشعب أما أنتم فمجرد متآمرين على الشعب .... جيرانكم لم يعرفوا، قبل هذا العام، ثورة عبر كل مراحل تاريخهم. ثم إن ثوراتهم جاءت لتغيير رئيس برئيس وتبديل حزب بحزب ... أما هنا، فلا توجد أحزاب ولا يوجد رئيس. هنا، الشعب هو الذي يحكم. ولا يمكن لأحد أن يثور على الشعب. لا يمكن لأحد أن يثور على نفسه إلا إذا كان مجنوناً أو مدمناً حبوب هلوسة"<sup>117</sup>، ويضيف في إحدى خطبه التي تسجلها رواية (عدو الشمس الهلوان الذي صار وحشا) بالحرف :

"الليلة، ستنهك حرمان البيوت.

الليلة ليلة الزحف، الزحف في كل الاتجاهات : زنقة زنقة، دارا دارا، غرفة غرفة، فردا

فردا ...

الليلة ليلة الزحف عليكم، أيها الجرذان ...

116 ... "لوان الذي صار وحشا، ص 16.

117 نفسه، ص 29

سنمسخكم واحدا واحدا

لتختبئ الجردان وليرقص الأنصار في الشوارع ويغنوا ويستعدوا لقتل الجردان وبقر بطونهم وحرق جثثهم وإنه لزحف حتى النصر"118.

كما أبرز محمد سعيد الريحاني في الرواية دور الإعلام الذي تسخره هذه الأنظمة لتمرير مخططاتها، وإذا كان واقع الإعلام في تونس - كما تتبعنا مع أبي بكر العيادي - معتما ومضللا، فإن الوضعية في القطر الليبي تزداد عتامة وتضليلا، ذلك أن وسائل الإعلام الرسمي كهيئة خطاب تتوكأ على عكاز وحيد نظرا لغياب أي خيار إعلامي آخر غير رسمي كما في بقية البلدان. لقد جعل العقيد من هذا الإعلام وسيلة لتمرير هلوساته بل يصل الحد إلى درجة التحكم الفعلي في البرامج المذاعة حسب ما يملئ عليه المزاج والأهواء، ثم يوقف الخطاب بضغطة على الزر ليُرَبَط الاتصال مجددا بين الجهتين المنتظرتين، أستوديوهات الإذاعة والتلفزة المركزيتين في العاصمة وجمهور المستمعين والمشاهدين من المواطنين عبر أرجاء البلاد، ممن أفوا خرجاته وتخريجاته واعتادوا على قطع البرامج والمسلسلات والأخبار لفسح المجال لخطابات العقيد الثائر الذي، إذا ما لم يعجبه برنامج من المباشرة والمسجلة على السواء، ضغط من تحت ملاءته على السرير، على الزر لتتوقف البرامج أو يتوقف البث برمته. كما يحدث أحيانا ألا يروقه برنامج على فضائيات أجنبية، فهاتف إدارة الاستخبارات التي تبدأ للتو برشق الفضائية المعنية في القمر المعين مباشرة من (فيللا الاستخبارات) بالرسائل الخاطئة والرموز المشوشة فتعطل عمل الفضائيات المزعجة أو تشل حركتها بالمرّة... "119.

يتوقف الكاتب عند إحدى هلوسات قائد ثورة الفاتح والمتمثلة في (الكتاب الأخضر) الذي جعله العقيد الأساس العقائدي للدولة الليبية، وتشير رواية (عدو الشمس الهلوان الذي صار وحشا) إلى ذلك في إحدى خطب الزعيم :

"أيها الشعب العظيم، إن وحدة الشعوب من وحدة الخطاب المتداول بينها. لذلك، فقد عكفت مؤخرا على إعداد كتاب يكون لكم مرجعا في وضوئكم وصلاتكم وحجكم وشهادتكم

وموتكم وبعثكم. وهذا سيتطلب مصادر كل الكتب الوافدة من الخارج ومراقبة كل الكتب المطبوعة في الداخل.

وحده (الكتاب الأخضر) حر في التداول وحاضر في كل ربوع البلاد حيثما انتصبت الرفوف : في البيوت ومقرات العمل والأرصفة والسهول والهضاب والوديان والتلال والجبال ... وحده (الكتاب الأخضر) يُقرأ ويُشرح في كل مكان ...<sup>120</sup>.

وقد توسل الكاتب بتقنية الحذف الذي يولد السخرية بفعل الارتطام المستمر مع اللامتوقع. ومن ذلك سماع زغاريد تولي العقيد مقاليد الحكم :  
"الزغاريد في كلمكان..."

البعض روج بأن رائد الفضاء لويس آرمسترونغ سمع الزغاريد من على سطح القمر حين وطأت قدماه لأول مرة في تاريخ البشرية  
وميض الكاميرات في كل مكان...

البعض روج بأنه رأى صورته منقوشة على قرص القمر في الليالي البيض من منتصف الشهر الهجري...

صدى خطابه الأول في كل مكان، على أمواج كل الإذاعات والتلفزات، بين مواد كل الجرائد والمجلات والمناشير"<sup>121</sup>.

ومن مظاهر السخرية كذلك أن يقود البلاد شخص متقلب المزاج أشبه ما يكون بالهلوان على حد تعبير محمد سعيد الريحاني :

"ألم تقل قبل قليل بأنك تفاجأت لكونه لم تحدث ثورة في البلد ومع ذلك فهو

يقودها؟ كيف يمكنه قيادة ثورة لم تحدث؟ أليس هذا سيركا؟ أليس الرجل بهلوانا؟!

- ومع ذلك، فالمرحلة تحتاج إلى القليل من الفكاهة للترويح عن النفس من الإحباطات

المتلاحقة ربما، من الأفضل أن يكون الرئيس بهلوانا على أن يكون شيخا وقورا يدعي الجد

<sup>119</sup> عدو الشمس الهلوان الذي صار وحشا، ص 17.

<sup>120</sup> عدو الشمس الهلوان الذي صار وحشا، ص 16.

<sup>121</sup> نفسه، ص 12.

ويجهد نفسه في إقناعنا بمظاهره ونيته...<sup>122</sup>.

وعلى الرغم من أن عدد صفحات الرواية لا يتجاوز الخمسين، فإن الكاتب لجأ لعملية التكتيف والاختزال لمجموعة من الأحداث، مع هيمنة الحوار بشقيه الداخلي والخارجي، كما يظهر صوت العقيد بشكل قوي في فصول الرواية سواء في محاوراته أو في خطبه الشهيرة وأحيانا حتى في كوابيسه. كما توسل الكاتب بعدد من الأساطير والحكايات الشعبية والرموز (نيرون- كاليغولا- كركلا- تيتوس)، إضافة إلى اعتماد أسلوب السخرية، ولغة الحديث اليومي في بعض المقاطع (جاين لك، يا معمر، جاين لك ..)(ص 11) مما يجعل الأحداث أكثر واقعية.

#### • خاتمة :

إن المتتبع للمنجز الروائي بعد سنة 2011 سيستشف أن موضوع الربيع العربي كان حاضرا بقوة في الرواية العربية عموما والمغاربية خصوصا سواء بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، وقد تبين من خلال النماذج الروائية الثلاث أن مجموعة من المواضيع التي كانت من المحظورات كانت حاضرة بقوة منها ما هو مرتبط بالوضع السياسية والاجتماعية التي أسهمت في اندلاع شرارة الربيع العربي في هذه الأقطار، ومنها ما هو مرتبط بمطالب الشعوب كالحرية والكرامة والديموقراطية. ومهما ترتب عن هذا الحدث العظيم من إيجابيات أو سلبيات أو تداعيات، فإن المشهد الإبداعي حقق قفزة نوعية إذ أوجد أعمالا روائية لم تنجمها القريحة العربية منذ عقود، لسبب بسيط هو أن الخمول الذي خدر القريحة الأدبية سابقا أماتته صيحات الثوار وزرعت مكانه حماس الكاتب المتفاعل مع تلك الصيحات، فالثورات العربية جعلت للحضور الأدبي بكل أجناسه نكهة جديدة في الأقطار العربية مهما تعددت الاختلافات، فهي مسيجة بحرية التعبير المفقود سابقا. مما جعل النقاد يعتبرون هذا الإبداع مرحلة جديدة تنسم بالحماسة والزرعة التغييرية الجادة.

<sup>122</sup> عدو الشمس الهلوان الذي صاروحشا، ص 13.